التحوّل كيف نفعله عملياً

بقلم: أنور السمراني
www.esoteric-lebanon.org

منذ مدة وجيزة، وخلال إحدى الدورات التدريبية العليا، استوقفني عنوان عريض لأحد المواضيع: «التغيير إجباري، والنمو اختياري...» (Change is Inevitable, Growth is Optional) حيث راح الحاضرون يناقشون أهمية التعلم والانفتاح على الجديد، والعمل على تطوير النفس والتخلص من الصفات المنغصة التي تكبح التقدم، وذلك في سبيل التطور في الحياة عامة، والتركيز على الارتقاء في مجال العمل.

أعجبتُ بالحوار كوني طالب معرفة، خاصة وأن أكثر ما يستهويني من أبحاث هي تلك التي تطال الإنسان وسعيه في سُبل التطور في الوعي على كل صعيد. وكأن المصادفة شاءت لي الغوص أكثر في الموضوع، حيث دعيت لحضور إحدى محاضرات علوم الإيزوتيريك العامة. وقد جاء في سياق المحاضرة ما مفاده: «أن التجدد ضروري لأي شخص يرغب في مجاراة ركب التطور الحالي، لكن إذا ما أراد المرء أن يكون من رواد المستقبل، فعليه أن يعمل على ميزة التحوّل...».

أهمية التحوّل تكمن في كينونة الفعل نفسه، فهو يختلف عن التغيير أو التحسين أو التجدد أو الابتكار أو غير ذلك.. بحيث أن التحوُّل هو الفعل الوحيد الذي يوصل المرء إلى تحقيق وعي جديد، لا رجوع من بعده إلى الحالة القديمة.. وهنا يكمن كل السرّ والتمايز الدقيق عن غيره من الوسائل، التي، في الغالب، تعيد السائر أدراجه مستقرا في مكانه القديم بعدما يكون قد أحرز بعض التقدم بواسطة الابتكار أو التجدد أو ما شابه.

وفي هذا السياق، أستشهد بما ذكر حول مفهوم التحوّل بتصوير العبارة الآتية:

«.. الفراشة ليست كائناً مختلفاً عن الدودة التي اعتزلت في شرنقتها.. بل إن الفراشة هي نفسها الدودة بعد أن تحولت! هذا هو المفتاح، أو كلمة السر: التحوّل!».

ويستطرد الكتاب: «تأخذ المعلومات الجديدة عبر كلمات، فتتحوّل تلك المعلومات فهماً في ذهنك... ثم تدخل معترك الحياة، فيتحوّل هذا الفهم تطبيقاً عملياً يمكنك لمسه واختباره واقعيا... وأخيرا يتحوّل هذا التطبيق وعياً، لأن التطبيق يولد الخبرة، والخبرة تولد الوعي... بذلك يكون الوعي حصيلة اكتساب المعلومات، ليس لأن المعلومات شيء يختلف عن الوعي... ليس لأن المعلومات قد تلاشت ليظهر مكانها الوعي، بل لأن المعلومات قد تحوّلت وعيا! ...»

إنّ التحوّل يطال الإنسان كمحور لكل الأبعاد المذكورة أعلاه. إذ إنّه يتحوّل كل يوم إلى شخص جديد بفعْل الخبرات التي تمر عليه. وهنا يجوز الاستنتاج أيضاً أن تحوّل المرء بشكل عام يحدث بشكل تلقائي، لا شعورياً منه في معظم الأحيان... ذلك لأن الانفتاح، والتغيير، والمثابرة، والتطبيق المستديم هي العجلات الأربع التي تسير عليها مركبة المرء باتجاه التحوّل الإرادي والايجابي.

وإذا ما أردنا الغوص أكثر في علوم معرفة الإنسان، نستنتج أن المنهج العملي للنجاح في تطبيق التحوّل حياتيا يندرج في أربع مراحل، تتمثل بالتالي:

1 - معرفة أين نحن، وفهم الحالة التي نحن فيها حالياً - أي في الوقت الآني.

2 - تحديد الصورة المستقبلية لنا (الهدف). بمعنى تصورنا للمستقبل الذي نطمح إليه، وكيف نريد أن نصبح.

3 - رسم الطريق للوصول إلى ذلك المَعْلَم، لنصبح ذلك الإنسان الجديد.

4 - اتخاذ خطوات ثابتة والانطلاق بثقة طامحة لبناء إنساننا الجديد.

قد يبدو ذلك بديهياً، لكن المراقبة الدقيقة للتصرفات اليومية في ضوء التوثُّب الفكري وعلى قاعدة صدق النفس مع الذات، كفيلة بأن تعيدنا إلى أسس التطبيق (أي العودة إلى الأصول أو إلى الجذور إذا صح التعبير). إذ إنَّ السلبيات المتجذرة في النفس تعيد المرء أدراجه بعد إحرازه مرحلة معينة من التطور، خاصة حين يغيب مفهوم التحوّل عن حياته.

لنتأمل في المستقبل، ولنسرح أفكارنا في المهمات التي تنتظرنا.. حينها، وحينها فقط، تأتي الصورة واضحة جلية بأن المستقبل يتطلب من كل منا أن نكون إنساناً جديداً وليس شخصاً أفضل وحسب؟!.. أوليس المطلوب منا فعلاً هو التحوّل مما نحن عليه اليوم إلى الرواد الذي تريده الحياة منا بأن نكونه؟!..

أليس هذا هو الأفضل لحياتنا وأعمالنا؟!